الفصل الأول

القبة المدفن

في العمارة الإسلامية

أولاً : المسميات المختلفة التى أطلقت على المدافن أو القبور الإسلامية :

أطلق على المكان الذى يوارى فيه جسد الإنسان مسميات كثيرة منها :

١ - المدفـــن :

هو مكان دفن الإنسان والدفن هو « الستر والمواراه دفنه يدفنه دفناً وأدفنه فإندفن وتدفن فهو مدفون ودفين ودفن الميت واراه هذا الأصل ثم قال دفن سره أى كتمه والدفينة الشيء تدفنه »[١] .

٢ - القبـــر :

هو مدفن الإنسان والجمع قبور يقبره دفنه وأقبره وجعل له

---

(١) **ابن منظور** : (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى) ت : ٧١١هـ / ١٣١١م . لسان العرب - سلسلة تراثنا - طبعة مصورة عن طبعة بولاق جـ ١٧ ص ١١ - ١٢ .

obeikandl.com

قبراً[٢] ، والمقبرة هى موضع القبر والجمع مقابر .

٣ التـــربة :

تعنى المقبرة وترب الميت أى صار تراباً[٣] .

هذا وقد تطور مدلول لفظ التربة واتسع معناه فى العصر المملوكى وبخاصة العصر الجركسى فصار يقصد به المنشأة الدينية بصفة عامة والخانقاه بصفة خاصة التى تحتوى فيما تحتوى من مكونات معمارية متعددة على المقبرة أو المدفن ذى القبة[٤] .

٤ - الجـــدث :

هو القبر والجمع أجداث وفى الحديث نبؤوهم أجداثهم أى ننزلهم قبورهم ، وقد قالوا جدف فالفاء بدل من الثاء لأنهم قد أجمعوا فى

---

(٢) **ابن سيده** : (أبى الحسن على بن إسماعيل الأندلسى المعروف بابن سيده المرسى) ت : ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م . المخصص – الطبعة الأولى – بولاق ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠م - جـ ٦ – ص ١٣١ .

الجوهرى : (أبى نصر إسماعيل بن حماد) توفى أواخر ٤ هـ / ١٠م . تاج اللغة وصحاح العربية - جـ ١ – ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

الخوارزمى : (أبى الفتح ناصر بن عبد السيد بن على المطرزى) ت : ٦١٦ هـ / ١٢١٩م . المغرب فى ترتيب المعرب – الطبعة الأولى – الهند ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠م – جـ ٢ – ص ١٠٧ .

(٣) **المقرى** : (أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى) ت : ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨م المصباح المنير جـ ١ ص ٣٥ .

ابن مفتاح : أبو الحسن عبد الله – ت : ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م . شرح الأزهار – القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م - جـ ١ ص ٤٤٥ .

(٤) **محمد حمزة إسماعيل الحداد** : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك - رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٨٦م ص ١٥٩ ١٦٨ .

الجمع على أجداث ولم يقولوا أجداف(٤م) .

٥ - الجنـــن :

جن الشيء يجنه جناً ستره وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك ، والجنن بالفتح القبر لستره الميت والجنن أيضاً الكفن لذلك واجنه كفنه والجنين المقبور ويقال للقبر الجنن ويجمع على أجنان(٥) .

٦ - الرمـــس :

الرمس الصوت الخفى ورمس الشيء يرمسه رمساً طمس أثره ورمسه يرمسه ويرمسه رمساً فهو مرموس ورميس دفنه وسوى عليه بالأرض وكل ما هيل عليه التراب فقد رمس وكل شيء نثر عليه التراب فهو مرموس ، وإذا كان القبر مُدَرَّ ما أى مستوياً على وجه الأرض فهو رمس وأصل الرمس الستر والتغطية ويقال لما يحثى من التراب على القبر رمس والقبر نفسه رمس والجمع أرماس ورُمُوس(٦) .

٧ - الرجـــم :

وقيل الرجم بضم الجيم والرجمه بسكون الجيم جميعاً الحجارة التى تنصب على القبر وقيل هى العلامة ، والرُجمه والرَجمه القبر والجمع رجام وهو الرَجَمُ بالتحريك والجمع أرجام سمى رجماً لما يجمع عليه من

(٤م) **ابن سيده** : المخصص - جـ ٦ - ص : ١٣٢ .
ابن منظور : لسان العرب - جـ ٢ - ص ٤٣٣ .
(٥) **ابن سيده** : المصدر السابق والصفحة نفسها .
ابن منظور : المصدر السابق - جـ ١٦ - ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٦) **ابن سيده** : المصدر السابق والصفحة نفسها .
ابن منظور : المصدر السابق جـ ٧ - ص ٤٠٥ ٤٠٦ .

الأحجار ، والرجم بالتحريك هو القبر نفسه والرُجمه بالضم واحد الرُجم والرجام وهى حجارة ضخام دون الرخام وربما جمعت على القبر ليسنم ، وقال أبو عبد الله المُزنى : لا ترجموا قبرى أى لا تجعلوا عليه الرجم وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض وأن لا يكون مسنماً مرتفعاً[٧] .

٨ - الرَّيـــم :

القبر وقيل وسطه[٨] .

٩ - البيـــت :

هو القبر أراه على التشبيه[٩] .

١٠ - البـــلد :

المقبرة وقيل هو نفس القبر[١٠] .

١١ - الجول والجال :

ناحية القبر[١١] .

١٢ - الكـــدية :

ومنه أن فاطمة ابنة النبى ﷺ خرجت لعزاء بعض جيرانها

---

(٧) ابن سيده : المخصص : جـ ٦ - ص ١٣٢ - .
ابن منظور : المصدر السابق - جـ ١٥ - ص ١١٨ - ١١٩ .
(٨) ابن سيده : المصدر السابق والصفحة نفسها .
(٩) ابن سيده : نفس المصدر والصفحة .
(١٠) ابن سيده : نفس المصدر والصفحة .
(١١) ابن سيده : نفس المصدر والصفحة .

obeikandl.com

فلما انصرفت قال لها الرسول ﷺ : « لعلك بلغت معهم الكُدّى » أراد المقابر وذلك لأن مقابرهم كانت فى مواضع صلبة وهى جمع كُدْية(١٢) .

١٣ - اللحـــد :

والجمع الحاد ولحود وهو شق يعمل فى جانب القبر فيميل عن وسط القبر إلى جانبه بحيث يسع الميت فيوضع فيه ويطبق عليه اللبن ، وسمى اللحد لحداً لأنه فى ناحية وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشىء ومن ثَمَّ قيل للمائل عن الدين ملحد(١٣) .

١٤ - الضـــريح :

وهو شق فى وسط القبر وقيل القبر كله وقيل هو قبر بلا لحد وسمى ضريحاً لأنه يشق فى الأرض شقاً أو لأنه انضرح عن جانبى القبر فصار

---

(١٢) **ابن منظور** : المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٨٠ - ٨١ .

(١٣) **البخارى** : (الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل) ت : ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م صحيح البخارى - المجلد الأول - جـ ٢ - (بيروت - بدون تاريخ) ص ١١٥ .

ابن سيده : المخصص - جـ ٦ - ص ١٣٢ .

ابن قدامة : (موفق الدين أبى محمد) ت : ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣م . المغنى والشرح الكبير - جـ ٢ - (بيروت ١٩٧٢م) ص : ٣٧٩ .

ابن منظور : المصدر السابق - جـ ٤ - ص : ٣٩٣ - ٣٩٤ .

ابن مفلح : (شمس الدين المقدسى) ت : ٧٦٣ هـ / ١٣٦١م . كتاب الفروع - راجعه عبد الستار فراج - جـ ٢ - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٨٤م - ص ٢٦٨ .

العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى - جـ ٣ - الطبعة الثانية القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩م . - ص ٢٥٢ .

ابن مفتاح : (أبو الحسن عبد الله) ت : ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م . شرح الأزهار جـ ١ - القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م - ص ٤٣٨ .

الرازى : (محمد بن أبى بكر) مختار الصحاح عنى بترتيبه محمود خاطر الطبعة =

فى وسطه[١٤] .

وتدل معظم الأحاديث النبوية على استحباب اللحد وأنه أولى من الضرح وإلى ذلك ذهب الأكثر كما قال النووى وحكى فى شرح مسلم إجماع العلماء على جواز اللحد والشق ووجه ذلك أن النبى ﷺ قرر من كان يضرح ولم يمنعه[١٥] ، ومن المعروف أنه لحد للرسول ﷺ كما أمر سعد بن أبى وقاص أن يلحد له لحداً وينصب عليه اللبن كما صنع برسول الله ﷺ[١٦] ومما يدل على أولوية اللحد ما روى عنه

= الخامسة بولاق ١٩٣٩م – ص ٣٧٩ .

الصنعانى : (محمد بن إسماعيل) ت : ١١٨٢هـ / ١٧٦٧م . سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام صححه وعلق عليه / محمد عبد العزيز الخولى – جـ ٢ – القاهرة - بدون تاريخ - ص ٥٧٢ .

الشوكانى : (محمد بن على) ت : ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م . نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار – جـ ٣ – بولاق – ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م – ص : ٣١٩ – ٣٢٠ .

الحسينى يوسف الشيخ وآخرون : تقريب فتح القريب فى الفقه الشافعى – جـ ١ القاهرة ١٩٨٤م – ص ١٠٥ .

(١٤) **صحيح البخارى** : المجلد الأول – جـ ٢ – ص ١١٥ .

ابن **سيده** : المصدر السابق والصفحة نفسها ، **ابن قدامة** : المصدر السابق والصفحة نفسها .

ياقوت : معجم البلدان - جـ ٥ – ص ٤٢٨ – ٤٢٩ .

ابن منظور : المصدر السابق – جـ ٣ – ص ٣٥٧ – ٣٥٨ .

المقرى : (أحمد بن محمد بن على) ت : ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م . المصباح المنير – تحقيق : د. عبد العظيم الشناوى – ص ٣٦٠ .

العسقلانى : المصدر السابق – جـ ٣ – ص ٢٥٢ .

ابن مفتاح : المصدر السابق – جـ ١ - ص ٤٣٨ .

الشوكانى : المصدر السابق - جـ ٣ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(١٥) **الشوكانى** : المصدر السابق – ص ٣٢٠ .

(١٦) **العسقلانى** : كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام فى علم الحديث (القاهرة ١٣٣٠هـ / ١٩١١م) - ص ٩٥ .

obeikandi.com

ﷺ أنه قال : « اللحد لنا والشق لغيرنا »[١٧] .

يتبين لنا من خلال العرض السابق تعدد المسميات التى أطلقت على المدافن أو القبور الإسلامية ، وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن التسمية التى رددها علماء الآثار العرب والأجانب على السواء وأطلقوها على المدافن الإسلامية وهى الأضرحة ليست صحيحة فى غالب الأحوال لأن المدفن لا يكون ضريحاً إلا إذا كان شقاً فى وسطه كما سبق القول ، وهذا يعنى أن كل مدفن ليس ضريحاً فقد يكون لحداً ومن جملة الخطأ الواقع فى هذا الصدد ما نراه فى غالبية المراجع العربية والأجنبية من وصف مدفن أو قبر النبى ﷺ بأنه ضريح وهذا ليس بصحيح لأنه لحد للنبى ﷺ ولم يضرح له كما تذكر كتب السنة والفقه الإسلامية .

وبناء على ماسبق آثرت استخدام كلمة القبة المدفن[١٨] وقد

---

(١٧) **ابن سعد** : (الإمام محمد بن سعد كاتب الواقدى) - الطبقات الكبرى القاهرة - ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩م - جـ ٤ - ص ١١١ ، ١١٥ .

ابن الهمام الحنفى : (كمال الدين محمد بن عبد الواحد) ت : ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م شرح فتح القدير - الطبعة الأولى - بولاق ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م - ص ٤٦٩ .

(١٨) أطلق الدكتور (حسنى نويصر) على هذا النوع من المدافن اسم القبة الضريحية .

— مدرسة الأمير فيروز الساقى بالقاهرة - مجلة الأزهر - جـ ٢ - السنة ٥٥ صفر ١٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٩٨٢م - ص ١٧٦ .

— مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة (مدرسة الأمير سودون من زادة بسوق السلاح) - (مكتبة نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة / ١٩٨٥م) - ص ٢٤ .

والواقع أن هذه التسمية ليست صحيحة لأن المدفن لا يكون ضريحاً إلا إذا كان شقاً فى وسطه كما سبق القول هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن وثيقة سودون من زادة لم يرد بها لفظ الضريح وإنما ورد بها لفظ القبة وهى « معقودة بالحجر الفص النحيث بصدرها محراب بها فسقيتان مبنيتان فى تخوم الأرض معدتان لدفن الأموات ... » وثيقة سودون من زادة بدار الوثائق القومية بالقلعة - رقم ٥٨ - سطر ٤٥ ٤٦ - عن : =

شجعنى على ذلك بضعة عوامل منها :

(أ) أن معظم المدافن التى تتناولها الدراسة مغطاة بقباب[١٩] .

(ب) أطلقت الوثائق على المدفن الذى يعلوه قبة اسم القبة[٢٠] أو القبة

- حسنى نويصر : المرجع السابق - ص ٧٢ .

(١٩) انتشرت المدافن المغطاة بقباب فى شتى أنحاء القرافة والقاهرة انتشاراً كبيراً وإن كان هذا لم يمنع وجود مدافن لا تعلوها قباب ومن أمثلة ذلك المدافن البسيطة المنتشرة فى القرافة وأحواشها ، وأيضاً بعض المدافن الملحقة بالمنشآت الدينية المملوكية ومن أمثلة ذلك مدفن الأمير منجك اليوسفى الملحق بمنشأته ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م . (شكل ٢٣) .

والواقع إن وجود هذا المدفن من عصر المماليك البحرية ينفى تماماً القول بأن هذا النوع من المدافن لم يظهر قبل العصر الجركسى وأنه ظهر لأول مرة بالعمارة الإسلامية فى مصر فى المدفن الملحق بمدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى (جامع البنات) ٨٢١هـ / ١٤١٨م . ثم ظهر بعد ذلك فى المدفن الملحق بمدرسة القاضى يحيى زين الدين (بالأزهر) ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م .

محمد الكحلاوى : مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى (رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٨١م) - ص ٧٠ - ٧٤ .

ليلى الشافعى : منشآت القاضى يحيى زين الدين بالقاهرة (رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة القاهرة - ١٩٨٢م) ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢٠) انظر نص هذه الوثائق فى :

عبد اللطيف إبراهيم : نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش (مجلة كلية الآداب المجلد ٢٧ - ج ١ ، ٢ ، ١٩٦٥م - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٩م - ص ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

دولت عبد الله : الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى - ص ٢٤٢ .

محمد مصطفى نجيب : مدرسة الأمير كبير قرقماس - الملحق الوثائقى - ص ٢٢ .

سامى عبد الحليم : آثار الأمير قانى باى الرماح بالقاهرة - رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٧٥) - ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

سامى حسن : السلطان إينال وآثاره المعمارية فى القاهرة الملاحق ص ٤ .

محمد عبد الستار : الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباى - ص ٦٩ .

محمد فهيم : مدرسة السلطان قانصوة الغورى (ماجستير غير منشورة - جامعة =

المدفن[٢١] ، أما المدفن الذى لا تعلوه قبة فقد أطلقت عليه الوثائق لفظة المدفن فقط[٢٢] .

(جـ) أطلقت النصوص التأسيسية على المدفن الذى يعلوه قبة اسم القبة[٢٣] على أساس أنها إحدى سمات المبنى المميزة ومن ثم أطلق الجزء على الكل فقيل القبة أما المدفن الذى لا تعلوه قبة فقد أطلقت عليه النصوص لفظة المدفن فقط[٢٤] .

يتبين مما سبق أن التسمية التى تخيرتها تتمشى مع ما جاء بالوثائق والنصوص التأسيسية الخاصة بالمدافن التى تعلوها قباب وتتمشى أيضاً مع الواقع المادى المتمثل فى وجود مدافن تعلوها قباب وأخرى لا تعلوها قباب .

ثانياً : آراء الفقهاء فيما يخص البناء على المدافن أو القبور :

اختلف الفقهاء فيما بينهم بشأن حكم البناء على المدافن أو القبور هل هو جائز أم هو ممنوع ؟؟

= القاهرة – ١٩٧٧م) ص ٢٠٧ – ٢٠٨ ، ٢١٢ .

(٢١) حجة وقفة السلطان قايتباى – أوقاف ٨٨٦ – ص ١٢ ، ١١٥ .

(٢٢) ومن أمثلة ذلك المدفن المجاور لقبة قرقماس ومدفن القاضى يحيى زين الدين .

محمد مصطفى نجيب : المرجع السابق – الملحق الوثائقى - ص ٢٢ .

ليلى الشافعى : المرجع السابق – ص ٣٢٩ .

(٢٣) انظر النص التأسيسى لقبة كل من إينال وقايتباى وقانصوة أبو سعيد والعادل طومانباى وقانيباى الرماح وطراباى الشريفى فى

Berchem: Materiaux Pour un corpus inscriptionum Arabicarum – Port Two pp. 395, 435, 556, 563.

(٢٤) ومن أمثلة ذلك مدفن القاضى يحيى زين الدين بالأزهر ، وقد جاء النص التأسيسى له على هذا النحو « انشأ هذا المدفن المبارك » .

Berchem: Op., Cit., p. 389.

والواقع أنه لم يرد فى القرآن الكريم ما يدل على تحريم البناء على القبور أو إباحته وإن جاء فى آية من سورة الكهف ما يشير إلى إقامة مسجد على أصحاب الكهف فيقول الله تعالى :

﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾[٢٥] .

وقد استدل بهذه الآية بعض الفقهاء على جواز بل واستحباب بناء المساجد والقباب على القبور[٢٦] .

وقد ردّ (الشيخ الألبانى) على هذا الرأى من عدة وجوه :

الأول :

أن الصحيح المتقرر فى علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ :. « وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » . فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما فى الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا .

الثانى :

هب أن الصواب قول من قال : « شريعة من قبلنا شريعة لنا »

---

(٢٥) قرآن كريم سورة الكهف - آية (٢١) .

وعن تفسير هذه الآية انظر : تفسير الأمامين الجلالين (جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى) . حققه وبسقه الشيخ محمد الصادق القمحاوى - القاهرة ١٩٨٢م ص ٢٤٥

(٢٦) **أحمد الصديق الغمارى** إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور مطبعة دار التأليف بمصر ص ٢٣ ، ٣٤ .

فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد فى شرعنا ما يخالفه وهذا الشرط معدوم هنا لأن الأحاديث تواترت فى النهى عن البناء المذكور فذلك دليل على أن ما فى الآية ليس شريعة لنا

الثالث :

لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا ، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبى مرسل بل الظاهر خلاف ذلك ، وقد ذكر أصحاب التفاسير أن اتخاذ المسجد على قبرهم كان من فعل الغلبة على الأمور من الحكام وأن الطائفة الأولى كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده ودل الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ ابنوا عليهم بنياناً ﴾ فلم يقبل أهل الغلبة وهم الحكام منهم ذلك فاتخذوا عليهم مسجداً كما دلت الآية على ذلك وفى ضوء ذلك لا يصح الاحتجاج بهذه الآية والاستدلال بها على أى وجه من الوجوه(٢٧) .

ويروى أن الخليفة عمر بن الخطاب لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى على الناس وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدها عنده فيها شىء من الملاحم وغيرها(٢٨) .

والواقع أنه يستدل من الأحاديث النبوية الشريفة على أن النبى ﷺ نهى عن البناء على القبر وتجصيصه والكتابة عليه واتخاذ المساجد

---

(٢٧) **ناصر الدين الألبانى** · تحذير الساجد من إتخاذ القبور مساجد القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م ص ٤٧ ، ٥٠

(٢٨) نفس المرجع ص ٥٠

والسرج عليه ، ومن هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن جابر قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه »[٢٩] .

وزاد الترمذى « وأن يكتب عليه » وقال هذا حديث حسن صحيح وأخرج النهى عن الكتابة النسائى أيضاً وقال الحاكم وإن لم يخرجها مسلم فهى على شرطه[٣٠] .

وروى مسلم أيضاً عن أبى الهياج الأسدى قال : « قال لى على ابن أبى طالب ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »[٣١] وهذا الحديث فيه تصريح بأن النبى ﷺ بعث الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه لتسوية القبور ، وقال الترمذى هذا حديث حسن والعمل على هذا عند بعض أهل العلم فكرهوا أن يرفع القبر فوق الأرض إلا بالقدر المأذون فيه[٣٢] . وأما الحديث المشهور على الألسنة بلفظ : « خير القبور الدوارس » والذى ردده أيضاً بعض علماء الآثار[٣٣] فلا أصل

---

(٢٩) **مسلم** : (الإمام أبى الحسين مسلم النيسابورى) ت : ٢٦١ هـ / ٨٧٤م . الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم – جـ ٣ - بيروت بدون تاريخ ص ٦٢ .

(٣٠) **ابن قدامة** : المغنى والشرح الكبير جـ ٢ – ص ٣٨٧ .

القنوجى : (أبى الطيب صديق القنوجى البخارى) : الروضة الندية شرح الدرر البهية جـ ١ القاهرة بدون تاريخ - ص ١٨٢ .

الصنعانى : سبل السلام - جـ ٢ ص ٥٧٣ .

(٣١) **صحيح مسلم** : جـ ٣ - ص ٦١ .

(٣٢) **الصنعانى** : المصدر السابق ص ٥٧٤ .

عبد الرحمن آل الشيخ : (ت ١٢٥٨ هـ / ١٨٣٦م) . فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تحقيق محمد حامد الفقى الطبعة السابعة ١٩٥٧م ص ٤٨١ .

(٣٣) **محمد عبد العزيز مرزوق** : الفنون الزخرفية فى مصر قبل الفاطميين ،

له فى شيء من كتب السنة وهو بظاهره منكر لأن القبر لا ينبغى أن يدرس بل ينبغى أن يظل ظاهراً مرفوعاً عن الأرض قدر شبر ليعرف أنه قبر فيصان ولا يهان ويزار ولا يهجر (٣٤) .

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه بضعة أحاديث نبوية منها عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً قالت : ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنى أخشى أن يتخذ مسجداً » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لولا ذلك أبرز قبره غير أنه خَشِيَ أو خُشِيَ أن يتخذ مسجداً » .

ومنها عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما اشتكى النبى ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهما أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها تصاوير فيها فرفع رأسه فقال : « أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله » .

(القاهرة ١٩٧٤) ص ٤٠ .

محمد دهمان : فى رحاب دمشق – ص ٢٧١ .

عيسى سلمان : العمارات العربية الإسلامية فى العراق حـ ٢ العراق ١٩٨٢م ص ٦٧ .

(٣٤) **ناصر الدين الألبانى** : أحكام الجنائز وبدعها دمشق ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ٢٠٩

وعن عائشة رضى الله عنها : « أنه لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم به كشفها فقال وهو كذلك لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يُتخذ مسجداً »(٣٥) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذى حديث حسن وفى بعض نسخه صحيح(٣٦) ، وورد هذا الحديث بلفظ آخر : « لعن الله زوارات القبور والمتخذات عليها المساجد والسرج » رواه أبو داود والنسائى ولفظه : « لعن رسول الله »(٣٧) .

يستدل من الأحاديث النبوية السابقة أن البناء على القبور وتزيينها واتخاذ المساجد والسرج عليها منهى عنه مطلقاً بل إنه يعد كبيرة من الكبائر لأن اللعن الوارد فيها ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يكون فى حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى .

وقد أقر الفقهاء وأصحاب المذاهب الأربعة ذلك واتفقوا على تحريمه

---

(٣٥) **صحيح البخارى** : المجلد الأول جـ ١ ص ١٨٨ ، ١١٩ ، جـ ٢ ص ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٨ ، المجلد الثانى - جـ ٦ - ص ١٣ - ١٤ .

(٣٦) **ابن تيمية** : (تقى الدين) ت : ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م . اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم تحقيق محمد حامد الفقى - بيروت بدون تاريخ ص ١٠٩ .

(٣٧) **ابن قدامة** : المغنى والشرح الكبير ص ٣٨٧ .

(٣٨) **الشافعى** : (أبى عبد الله محمد بن إدريس) . الأم جـ ١ الطبعة الأولى بولاق ١٣٢١هـ ١٩٠٣م ص ٢٤٦ .

ومنهم من صرح بأن ذلك يعد كبيرة من الكبائر كما سبق القول[٣٨] .

وتوجد طائفة أخرى من الفقهاء أجازت بل واستحبت بناء المساجد والقباب على القبور ولاسيما قبور المشايخ والفضلاء والصلحاء[٣٩] . وقد تولى الرد عليهم وتفنيد حججهم ودحضها والنيل منها بعض الفقهاء[٤٠] الغيورين على الدين وانتهوا إلى القول بصحة ما جاء فى الأحاديث النبوية وبما أقره الفقهاء وأصحاب المذاهب الأربعة .

هذا وقد أشار علماء الآثار إلى كراهية الفقهاء المسلمين للبناء على القبور طبقاً لما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة[٤١] .

= **ابن حزم** : (أبى محمد على بن أحمد بن سعيد) ت : ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣م . المحلى تحقيق أحمد شاكر – جـ ٥ – الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠م ص ١٣٣ .

ابن قدامة : المغنى والشرح الكبير – ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم – ص : ١٠٨ – ١٠٩ كتاب مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – المجلد الأول – القاهرة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م - ص ١٠٧ ، المجلد الثانى – القاهرة – ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م – ص ١٩٢ .

الشوكانى : شرح الصدور بتحريم رفع القبور - تصحيح وتعليق محمد حامد الفقى القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦م – ص ٧ ، ٢٤ .

ابن عابدين : حاشية ابن عابدين – جـ ١ – ص ٩٣٧ .

عبد الرحمن آل الشيخ : فتح المجيد – ص ٢٣٢ .

القنوجى : الروضة الندية - جـ ١ - ص ١٨٠ ١٨٣

الألبانى : تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص ٣٢ ، ٤٥ .

(٣٩) **ابن مفلح** : كتاب الفروع - جـ ٢ – ص ٢٧٢ ٢٧٣ .

أحمد الصديق : إحياء المقبور – ص ١٣ ، ٥٦ .

(٤٠) **الشوكانى** : شرح الصدور بتحريم رفع القبور ؛ ص ٧ ، ٢٤ .

الألبانى : تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص ٤٦ ، ١٠١ .

(٤١) **Creswell:** The Muslim Architecture of Egypt. Vol. I. p. 110.

Kessler (C): Funerary Architecture within the city. (Colloque international =

ويرى أحد العلماء أن دفن الرسول ﷺ فى بناء قائم وهو حجرة السيدة عائشة رضى الله عنها والتى كان لها سقف وجدران أمر يدعو للتساؤل عن مبلغ تلك الكراهية التى نسبت للرسول عليه الصلاة والسلام وعن أنه لو كان متشدداً فى ذلك حقاً لأوصى أصحابه وأنصاره بذلك عند إحساسه بدنو أجله ولألح عليهم أن يتجنبوا دفنه ﷺ – وهو قدوة المسلمين فى حياته ومماته – فى مكان عليه بناء حتى لا يلتبس الأمر من بعده على المسلمين ويتخذون من ذلك سنة يسيرون عليها وحتى لو لم يلح الرسول فى ذلك لما غفل أصحابه وأنصاره عن دلالة دفنه فى حجرة السيدة عائشة رضى الله عنها ومخالفتها لما أوصى به الرسول لو كان ذلك صحيحاً وهى ملاحظة تترك المجال للتشكك فى صحة الحديث الذى نسب إلى الرسول ﷺ لما يوجد من تضارب بينه وبين الدليل المادى على عدم كراهية الدفن فى مكان مشيد ويدعو رجال الدين إلى إعادة النظر فيما ورد فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة وفى غيره من الكتب(٤٢) .

والواقع أنه يمكن الرد على هذا القول من ثلاث وجوه :

الأول :

---

sur l'Histoire du Caire. 1969). p. 257.

(٤٢) **فريد شافعى** : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - ص ٢٥٥ – ٢٥٦ . هذا وقد أشار (د. مرزوق) إلى هذا المعنى أى دفن الرسول ﷺ فى حجرة السيدة عائشة ثم دفن أبو بكر وعمر إلى جواره فيما بعد وأشار إلى الأحاديث الخاصة بكراهية البناء ثم تساءل فقال : ترى هل فعل الصحابة ما فعلوه وهم يعرفون تلك الأحاديث أم لم تكن تلك الأحاديث موجودة أصلاً ؟ أم إنهم رأوا أنها تنصرف فقط إلى قبور العامة دون الخاصة ؟؟)

عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية قبل الفاطميين ص ٤٠ .

إن الدفن فى البناء القائم لا شبهة فى جوازه كما نص عليه الفقهاء إلا أن ابن حنبل رأى مع الجواز أن الدفن فى مقابر المسلمين أولى مراعاة لعمل أكثر الناس ورأى أن دفن النبى فى البناء لأجل التمييز اللائق بمقامه الأرفع ﷺ وهذا لا يخفى ما فيه لأنه تخصيص بدون مخصص ، وقد روى ابن سعد فى الطبقات أن رسول الله ﷺ قال : « إنما تدفن الأجساد حيث تقبض الأرواح »(٤٣) ومعلوم أن الأرواح تقبض غالباً فى البيوت فمقتضى هذا أن الدفن فى البناء أولى لكن وقع فى هذه الرواية اختصار فقد روى الحديث من وجوه متعددة من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ففى لفظ : « ما مات نبى إلا دفن حيث يقبض » وفى لفظ : « ما توفى الله نبياً قط إلا دفن حيث تقبض روحه »(٤٤) وهو صريح فى عدم تخصيص النبى بذلك ، وقد اتفق الصحابة على دفن أبى بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه مع النبى ﷺ فلم يبق بعد هذا وجه لما قاله أحمد رحمه الله(٤٥) .

الثانى :

أن الرسول ﷺ دفن فى بيته حتى لا يتخذ قبره مسجداً كما ذكرت ذلك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت : « لولا ذلك أبرز قبره غير أنه خَشِى أن يتخذ مسجداً »(٤٦) .

ومدلول الترجمة أنه لولا اللعن الذى استحقه اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم القبور مساجد لجعل قبره ﷺ مكشوفاً كشفاً ظاهراً

---

(٤٤) **ابن سعد** : الطبقات الكبرى - حـ ٤ - ص ١٠٨ ١٠٩

(٤٥) **أحمد الصديق** : إحياء المقبور ص ٤ ٥

(٤٦) **صحيح البخارى** : المجلد الأول حـ ٢ ١٢٨

من غير بناء شيء عليه يمنع من الدخول إليه ، وقالت السيدة عائشة هذا الكلام قبل أن يوسع المسجد النبوى ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصل إلى جهة القبر مع استقبال القبلة(٤٧) .

وتفصيل ذلك أنه لما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه اختلف أصحابه فى موضع دفنه فقال قائل فى مسجده وقال آخر ادفنوه مع أصحابه بالبقيع وقال ناس يدفن عند المنبر ، فلما بلغ ذلك أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما مات نبى إلا دفن حيث يقبض » ومن ثم رفع فراش النبى ﷺ الذى توفى عليه ثم حفر تحته(٤٨) .

وقسم بيت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى قسمين : قسم كان فيه القبر وقسم كانت فيه السيدة عائشة وبينهما حائط فكانت عائشة رضى الله عنها ربما دخلت حيث القبر فُضلاً – أى متبذلة فى ثياب مهنتها فلما دفن عمر لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها(٤٩) .

---

(٤٧) **الكرمانى** : (محمد بن يوسف بن على) ت : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م . شرح صحيح البخارى - جـ ٧ - (القاهرة – بدون تاريخ) - ص ١١٣ .

العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى - جـ ٣ ص ٢٣٩ .

(٤٨) **ابن سعد** : الطبقات الكبرى - جـ ٤ ص : ١٠٨ ١٠٩ .

ابن هشام : (أبى محمد عبد الملك) سيرة النبى ﷺ – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ القاهرة بدون تاريخ – ص ٣٤٣ .

محمد حسين هيكل : حياة محمد القاهرة ١٩٣٥م – ص ٤٨٤ .

(٤٩) **ابن سعد** : المصدر السابق – ص ١١٠ .

السمهودى : (نور الدين) ت : ٩١١ هـ / ١٥٠٥م . وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - جـ ٢ – الطبعة الثالثة ١٩٨١م ص ٥٤٤ .

محمود عكوش : المسجد الأعظم بالمدينة (مجلة الهندسة السنة ١٦ العدد

ولم يكن على عهد النبى ﷺ على بيت النبى حائط وكان أول من بنى جداراً عمر بن الخطاب وكان جداره قصيراً ثم بناه عبد الله ابن الزبير وزاد فيه(٥٠) .

وقام عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فى عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م بتوسيع المسجد والزيادة فيه ولم يدخل حجر أزواج النبى ﷺ فى هذه الزيادة وقال : « فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها »(٥١) .

وقام عثمان بن عفان أمير المؤمنين فى عام ٢٩ هـ / ٦٤٩ م بتوسيع المسجد النبوى والزيادة فيه إلا أنه « لم يزد فى جهة المشرق شيئاً »(٥٢) .

وتدل هذه النصوص على أن الحجرة النبوية الشريفة لم تلحق بالمسجد فى عهدى كل من الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان ابن عفان(٥٣) وإنما حدث ذلك فى خلافة الوليد بن عبد الملك فيذكر ابن سعد عن بعض الرواة أنه : « انهدم الجدار الذى على قبر النبى ﷺ فى زمان عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ على المدينة فى ولاية الوليد فأمر عمر بعمارته(٥٤) .

---

٧ يولية ١٩٣٦م) ص ٢٧٨ .

(٥٠) **ابن سعد** : الطبقات الكبرى - ص ١١١ .

السمهودى : وفاء الوفاء - جـ ٢ - ص ٥٤٤ .

(٥١) **السمهودى** : نفس المصدر - ص ٤٨٢ .

(٥٢) **السمهودى** : نفس المصدر - ص ٥٠٧ .

(٥٣) **عبد المجيد وافى** : أصول روحية للعمارة الإسلامية - الزيادة فى المسجد ـوى (منبر الإسلام - العدد ٨ - السنة ٣١ ١٩٧٣م) ص ٢١٦ . زيادة مسجد النبوى الشريف على عهد عثمان بن عفان (منبر الإسلام العدد ٩ سنة ٣١ - ١٩٧٣) ص ١٢٧ .

(٥٤) **ابن سعد** : الطبقات الكبرى ص ١٢٣ ١٢٤ . وقد ذكر هذه الحادثة

ويبدو أن هذه الحادثة قد أوحت إلى الخليفة الوليد بتوسيع المسجد النبوى والزيادة فيه لاسيما وقد كثر المسلمون وضاق المسجد بهم فأمر واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بتنفيذ ذلك وقد بدأ الهدم ٨٨ هـ / ٧٠٧ م وانتهى البناء فى ٩١ هـ / ٧١٠ م وهى السنة التى حج فيه الوليد وزار فيها المسجد(٥٥) وقام عمر بن عبد العزيز بهدم حجرات أزواج النبى ﷺ فأدخلها فى المسجد وأدخل القبر فيه « وكانت الحجرات قبل ذلك ليست من المسجد ولكن أبوابها كانت شارعة فى المسجد »(٥٦) .

ويبدو أنهم أحسوا أنهم بعمارتهم هذه قد وقعوا فى مخالفة صريحة لكل الأحاديث المتقدمة ولما فعله كل من عمر وعثمان من عدم إدخال القبر فى المسجد فاحتاطوا للأمر وحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم فبنوا على القبر « الحظار(٥٧) المزور الذى هو عليه اليوم – أى زمن السمهودى – حين بنى المسجد فى خلافة الوليد وإنما جعله مزوراً كراهة أن يشبه تربيعه تربيع الكعبة وأن يتخذ قبلة فيصلى إليه »(٥٨) .

وتفصيل ذلك أنهم « بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور ؟ الذى نهى عنه الرسول ﷺ من اتخاذ القبر مسجداً ثم بنوا جدارين من ركنى

أيضا البخارى ولكن بشكل مقتضب صحيح البخارى – المجلد الأول - جـ ٢ ص ١٢٨

(٥٥) صالح لمعى : المدينة المنورة تطورها العمرانى وتراثها المعمارى - بيروت ١٩٨١م ص ٦٦ ٦٧ .

(٥٦) السمهودى : وفاء الوفاء جـ ٢ ص ٥١٦ - ٥١٧ .

(٥٧) الحظار بكسر الحاء الحائط وكل ما حال بينك وبين شيء .
السمهودى : وفاء الوفاء جـ ٢ ص ٥٤٤ حاشية ٢ .

(٥٨) السمهودى : نفس المصدر ص ٥٤٤

القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر»[٥٩].

مما سبق يمكن القول أن قبر النبى ﷺ قد ألحق بالمسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك حين لم يكن فى المدينة أحد من الصحابة وقيل أنه لم يبق بالمدينة إلا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فإنه آخر من مات بها فى سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م أى قبل إدخال الحجرة بعشر سنين[٦٠].

وفى ضوء ذلك لا يجوز الاستدلال بما هو مشاهد الآن من إدخال القبر النبوى فى مسجده عليه الصلاة والسلام لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة المتقدمة ومخالف أيضاً لصنيع عمر وعثمان حين وسعا المسجد ولم يدخلا القبر فيه ولهذا نقطع بخطأ ما فعله الوليد بن عبد الملك ولئن كان مضطرا إلى توسيع المسجد فإنه كان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض إلى الحجرة الشريفة وقد أشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى هذا النوع من الخطأ حين قام بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة بل قال أنه لا سبيل إليها فأشار رضى الله عنه إلى المحذور الذى يترتب من جراء هدمها وضمها إلى المسجد[٦١].

---

(٥٩) **ابن تيمية** : الجواب الباهر فى زوار المقابر – تحقيق الشيخ سليمان ابن عبد الرحمن والشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى – الطبعة الرابعة ١٩٨٠م – ص ١٥ – ١٦ .

عبد الرحمن آل الشيخ : فتح المجيد – ص ٢٣٤ .

الألبانى : تحذير الساجد – ص ٦٦ ، ٦٨ .

سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ ١ – ص ٣٨ .

(٦٠) **ابن تيمية** : المصدر السابق – ص ١٢ .

(٦١) **الألبانى** : تحذير الساجد – ص ٦٥ – ٦٦ .

ومما يجدر ذكره أنه لم يكن على الحجرة الشريفة قبة بل كان « حول ما يوازى حجرة النبى ﷺ فى سطح المسجد حظير مقدار نصف قامة مبنى بالآجر تمييزاً للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد كما ذكر ابن النجار وغيره واستمر ذلك إلى سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م فى أيام الملك المنصور قلاوون الصالحى فعملت تلك القبة وهى مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى وسمر عليها ألواح من خشب ومن فوقها ألواح الرصاص وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذى فيه الطابق ... »(٦٢) .

الثالث :

ومما يدل على أن هذه الأحاديث التى رويت كان لها صداها عند المتمسكين بأهداب دينهم وسنة نبيهم أن ابن عمر رضى الله عنهما رأى فسطاطاً على قبر عبد الرحمن فقال : « انزعه يا غلام فإنما يظله عمله » . وأوصى أبو هريرة رضى الله عنه أن لا يضربوا على قبره فسطاطاً(٦٣) . وكره أحمد الفسطاط والخيمة وحرم أبو حفص

---

(٦٢) **السمهودى** : وفاء الوفاء – جـ ٢ – ص ٦٠٨ .

صالح لمعى : المدينة المنورة - ص ٨٠ – ٨١ .

ويضيف فيقول : إن هذه القبة « جددت فى أيام الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون فاختلت الألواح لرصاصية عن وضعها فخشوا من كثرة الأمطار فجددت وأحكمت فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م .

السمهودى : المصدر السابق ص ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٦٣) **ابن قدامة** : المغنى والشرح الكبير ص ٣٨٧ .

الألبانى : تحذير الساجد ص ٩٩ .

الفسطاط أيضاً[٦٤] ويذكر البخارى أنه لما مات الحسن بن الحسن ابن على (ت : ٩٧ هـ / ٧١٥م) رضى الله عنهما ضربت امرأته القبة - وفى لفظ آخر الفسطاط - على قبره سنة ثم رفعت فسمعوا صائحاً يقول ألا هل وجدوا ما فقدوا فأجابه الآخر بل يئسوا فانقلبوا[٦٥] .

« ومدلول الترجمة أن المقيم فى الفسطاط لا يخلو من الصلاة هناك فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر وقد يكون القبر فى جهة القبلة فتزداد الكراهة . وقال ابن المنير إنما ضربت الخيمة هناك للاستمتاع بالميت بالقرب منه تعليلاً للنفس وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس ومكابرة للحس كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البالية ومخاطبة المنازل الخالية فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا وكأنهما من الملائكة أو من مؤمنى الجن »[٦٦] .

مما سبق يمكن القول أن الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والمفسرين قد اتفقت على النهى فى الجملة عن كل ما ينبىء عن تعظيم القبور تعظيماً يخشى منه الوقوع فى الفتنة والضلال مثل بنائها وتجصيصها أى تزيينها بالجص وكذلك ضرب الخيام عليها ورفعها أكثر من الحد المشروع واتخاذ المساجد والقباب فوقها وإيقادها بالسرج والسفر إليها والتمسح بها .

وعلى الرغم من وضوح كل ذلك إلا أن هذه الأحاديث قد أغفلت من قبل الحكام المسلمين شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأحاديث

---

(٦٤) **ابن قدامة** : المغنى - ص ٣٨٧ .
ابن مفلح : كتاب الفروع - جـ ٢ - ص ٢٧٢ .
(٦٥) **صحيح البخارى** : المجلد الأول - جـ ٢ - ص ١١١ .
الكرمانى : شرح صحيح البخارى جـ ٧ ص ١١٢ ١١٣
(٦٦) **العسقلانى** : فتح البارى بشرح صحيح البخارى - جـ ٣ ص ٢٣٨

المتعلقة بالتصوير وتحريمه[٦٧] .

فكما أن الصور الآدمية رسمت والمخطوطات ذوقت برسوم الكائنات الحيـة كذلك رفعت القبور وأقيمت عليها القباب العظيمة وزينت بأجمل الزينة بل وصل الأمر إلى أنها أصبحت أساساً لمجمعات دينية تقوم بأكثر من وظيفة وتخدم أكثر من غرض .

ثالثاً : نشأة القبة المدفن فى العمارة الإسلامية :

يفسر بعض الآثريين خلو آثار الأمويين من المدافن ذوى القباب[٦٨] بأن ذلك لا يرجع إلى كراهية الإسلام لبنائها وإنما إلى رغبة العباسيين فى تخريب وهدم ذلك النوع من العمائر بعد أن انتزعوا الخلافة من بنى أمية وقضوا عليهم وعمدوا إلى محو ذكراهم بإزالة أضرحتهم ونبش قبورهم ودفن عظامهم فى مواضع غير معروفة ولعل خشية العباسيين من أن يفعل بقبورهم مثل ما فعلوه فى قبور الأمويين قد دفعهم ذلك إلى إخفاء قبورهم وتضليل الناس عن مواضعها الحقيقية وذلك بحفر عدة قبور للشخص الواحد فى جهات متعددة

---

(٦٧) عن الأحاديث المتعلقة بالتصوير ومناقشتها انظر :
حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى – (القاهرة ١٩٥٩م) ص ٩ وما يليها .

(٦٨) عرفت القبة كشكل معمارى قبل العصر الإسلامى بوقت كبير ، وقد عالج (Smith) فى كتابه نشأة القبة وتطورها حتى أصبحت سمة مميزة فى العمارة البيزنطية والإسلامية وركز بصفة خاصة على القباب الخشبية .

Smith (B): The Dome, A study in the History of Ideas (Princeton, New Jersey, 1950). pp. 3 – 44.

ويذكر (د. أنور شكرى) أن القبة ظهرت فى مصر فى عصر الدولة القديمة وأنها تعلو بناء مربعاً من اللبن يتقدم مقبرة المدعو سنب غربى الهرم الأكبر .

وبإخفاء معالمها حتى قيل أنه لما مات أبو جعفر المنصور حفر له مائة قبر ودفن فيها كلها لكيلا يعرف موضع قبره الذى هو ظاهر للناس ودفن فى غيرها للخوف عليه وهكذا قبور خلفاء ولد العباس لا يعرف لأحدهم قبر(٦٩) . ومن المعروف أن الخلفاء العباسيين الذين عاشوا فى سامراء قد دفنوا فى قصورها فالخليفة المعتصم دفن فى الجوسق الخاقانى

أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة (القاهرة ١٩٧٠م) – ص ٣٦٨ .

والواقع أن ما يعلو هذا البناء ليس قبة وإنما هو مجرد قبو نصف دائرى ، وقد ناقش ذلك (د. الكسندر بدوى) فى دراسته التى قدمها فى :

A. Badawy: Brick Vaults and Domes in the Giza Necropolis in Abu Bakr ed., Excavations at Giza. 1949 – 1950, Cairo, 1953, pp. 129 – 143.

ومهما يكن من أمر فإن القبة كما هو ثابت عرفت منذ أقدم الأزمنة وانتشرت انتشاراً كبيراً فى الطراز الرومانى والساسانى والطراز البيزنطى لمزيد من التفاصيل انظر :

زكى حسن : فنون الإسلام – ص ٣٧ . الفنون الإيرانية (القاهرة ١٩٤٦م) ص ٥٤ .

فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية – ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٦٦ .

صالح لمعى : القباب (بيروت ١٩٧٧م) ص ٦٠٣ .

Pope (A.U.): Asurvey of Persian Art., Vol. I. (London and New York, 1938). pp. 501 – 503.

واستخدمت القباب فى تغطية كثير من مقابر البجوات بالوادى الجديد التى يرجع تاريخها إلى الفترة من ق ٢م حتى ق ٧م .

مصطفى شيحه : دراسة للعمائر القبطية بصعيد مصر فى العصر الفاطمى (رسالة دكتوراه غير منشورة – جامعة القاهرة – ١٩٧٩م) ص ٢٦٦ .

(٦٩) **فريد شافعى** : العمارة العربية فى مصر الإسلامية – ص ٢٥٦ .

شريف يوسف : تاريخ فن العمارة العراقية – ص : ٣٥٦ .

ويكاد يتفق رأى (د. مرزوق) مع الرأى السابق فقد علل ندرة القبور المشيدة بالكراهية التى كانت تكنها الدول الإسلامية بعضها لبعض الأمر الذى دفع برؤساء هذه الدول إلى العمل على محو كل أثر لأعدائهم من قصور وقبور فأزالوا قبورهم وهدموا قصورهم .

عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية فى مصر قبل الفاطميين – ص ٤١ .

والواثق فى القصر الهارونى والمتوكل فى قصر الجعفرية[٧٠] . ولما عاد الخلفاء العباسيون إلى بغداد أظهروا قبورهم وقد دفن الأولون منهم فى دار ابن طاهر بالحريم الطاهرى[٧١] ثم نقلت رفاتهم إلى ترب الخلفاء بالرصافة فى عام ٦٤٧ هـ / ١٣٤٩م بعد أن غمر الفيضان تربهم فى العام السابق[٧٢] .

وإذا كانت قبة الصليبية ٢٤٨ هـ / ٨٦٢م تعد أقدم مثل باق للمدفن ذى القبة فى العصر الإسلامى كما ذكر معظم العلماء والباحثين العرب والأجانب[٧٣] إلا أنه يستدل مما جاء فى المصادر التاريخية أنه

---

(٧٠) **Creswell:** Early Muslim Architecture, Part 2, pp. 284 – 285.

(٧١) الحريم الطاهرى من أشهر محلات الجانب الغربى لبغداد وقد انفردت مع دار الخلافة بتسميتها بالحريم ببغداد وهى تنسب إلى طاهر بن الحسين وبه كانت منازلهم وكان من لجأ إليه أمن فلذلك سمى الحريم وكان أول من جعلها حريماً عبد الله بن طاهر .

صالح العلى : بغداد مدينة السلام – المجلد الثانى – ص ١٩٣ .

(٧٢) **شريف يوسف** : المرجع السابق – ص ٣٥٦ .

صالح العلى : المرجع السابق – ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٧٣) **كمال الدين سامح** : تطور القبة فى العمارة الإسلامية (مجلة كلية الآداب – مج ١٢ ، جـ ١ ، مايو ١٩٥٠) ص ٧ .

عبد الستار العزاوى : العقود والأقبية العراقية فى العصور الإسلامية . رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة بغداد ١٩٦٩م – ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ ٢ – ص ١١ .

عبد الرحمن فهمى : بين قباب الخوندات المملوكية (منبر الإسلام – العدد ٧ – السنة ٣١ – ١٩٧٣م) ص ٢٤٤ .

عيسى سلمان : العمارات العربية الإسلامية فى العراق – جـ ٢ – ص ٦٨ .

حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية – ص ١٧٦ .

Creswell: Op Cit. p. 285.

Dury (C): Art of Islam. p. 57.

Papadopoulo (A): Islam and Muslim Art. P. 244.

كانت هناك مدافن تعلوها قباب قبل منتصف ق ٣ هـ / ٩ م . ومن أمثلة ذلك أنه لما توفيت أم الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك بنيت عليها قبة بأمر الرشيد عرفت بالقبة البرمكية[٧٤] وقد شاهد بقايا هذه القبة (موسيل) عام ١٩١٢ م[٧٥] ، وأقام المأمون قبة على قبر كل من الرشيد وعلى بن موسى الرضا[٧٦] .

مما سبق يمكن القول بأن المدفن ذا القبة قد عرف وفقاً لما جاء فى المصادر التاريخية فى عصر كل من الرشيد والمأمون أى فى أواخر ق ٢ هـ / ٨ م وأوائل ق ٣ هـ / ٩ م .

القبة المدفن فى مصر :

عرفت مصر إقامة القباب فوق المدافن وقد اختلف العلماء فيما بينهم بشأن أقدم الأمثلة التى ظهر فيها هذا النوع من المدافن فمنهم من ذكر أن مشهد آل طباطبا ٣٣٤ هـ / ٩٤٣ م من العهد الأخشيدى هو أقدم مثال لهذا النوع فى مصر[٧٧] .

---

(٧٤) **الشابشتى** : (أبى الحسن على بن محمد) ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م : الديارات تحقيق : كوركيس عواد – الطبعة الثالثة – بيروت ١٩٨٦ م - ص ٢٢٩ .

(٧٥) **عادل نجم** : التربة فى العمارة الإيوبية فى سوريا – ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

(٧٦) **القزوينى** : (زكريا بن محمد بن محمود) – آثار البلاد وأخبار العباد – بيروت – بدون تاريخ – ص ٣٩٢ .

ويضيف القزوينى فيقول : « إن الرشيد فى القبر الذى يعرفه الناس للرضا والرضا فى القبر الذى يعرفه الناس للرشيد وذلك من تدبير المأمون والقبران متقاربان فى قبة واحدة وأهل تلك القرية (ويقصد قرية سناباز من قرى طوس على ميل منها) شيعة بالغوا فى تزيين القبر الذى اعتقدوا أنه للرضا وهو للرشيد » .

القزوينى : نفس المصدر والصفحة .

(٧٧) **صالح لمعى** : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر – بيروت ١٩٧٥ م ص : ٣٠

ومنهم من ذكر أن القباب السبع[٧٨] ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م هى

ومما هو جدير بالذكر أن هذا المشهد كان يحوى قباباً تعلو مدافن أفراد أسرة الشريف طباطبا .

مجد الدين الناسخ : مصباح الدياجى – مخطوط – ورقة ٧٧–٨١ .

ابن الزيات : الكواكب السيارة – ص : ٥٩–٦٣ .

وتذكر (د. سيد الكاشف) أن الذين دفنوا بهذه المشاهد أفراد من بين الجيلين الثالث والتاسع من أسرة إبراهيم طباطبا الذى قدم إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد .

سيده الكاشف : مصر فى عصر الأخشيدين – ص : ٣٠١ .

وتقع البقايا المتخلفة من هذا المشهد على بعد ٥٠٠ م . غرب ضريح الإمام الشافعى و ٢٣٠ م شمال حمامات عين الصيرة وهذه البقايا عبارة عن مساحة غير منتظمة الشكل طولها ٣٠ م . وعرضها ٢٠ م . ويوجد فى النهاية الجنوبية منها قبتين وهذا المشهد يتكون من ثلاثة أروقة تعلوها تسعة قباب ومن ثم (اعتبره كريزول) مقبرة تذكارية مثل السبع بنات إلا أنها تتكون من تسع قباب بدلا من قبة واحدة ولذلك يعتبر هذا المشهد مثلا فريدا على الاطلاق فى العمارة الإسلامية ، والتاريخ المؤرخ به هذا المشهد هو تاريخ وفاة الشريف طباطبا الاصغر .

Creswell: the Muslim Architecture of Egypt. Vol. 1. pp. 11-15. Fig 5.

وانظر أيضا :

سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ١ – ص : ١٦٣ . شكل : ٦،٥ .

(٧٨) يذكر المقريزى أن هذه القباب بآخر القرافة الكبرى مما يلى مدينة مصر وهى مشاهد على سبعة من بنى المغربى قتلهم الحاكم بعد فرار الوزير أبى القاسم الحسين بن على المغربى إلى مكة .

المقريزى : الخطط – جـ٢ – ص : ٤٥٩ .

أما السخاوى فيذكر أن الحاكم قتل ستة فقط من أسرة هذا الوزير وهم والده وأخواه وثلاثة من أهل بيته وأنه عندما فر الوزير المغربى إلى مكة وبايع أبا الفتوح حسن بن جعفر بالخلافة ولقب بالراشد استرضاه الحاكم وبنى على قتلاه ست قباب إلا أنها عرفت بالسبع قباب والظاهر أنه كان إلى جانبها قبة أخرى فسميت بالسبع قباب بهذا الاعتبار وقيل إن القبة السابعة هى قبة الاطفيحى صاحب القناطر والسبيل وله معروف كثير وكان قريبا لبعض الأمراء والوزراء .

السخاوى : تحفة الأحباب ص : ١٧٠–١٧١

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن التسمية التى ردها علماء الآثار وهى قباب السبع بنات لا تتفق مع ما جاء فى المصادر التاريخية ومن ثم ينبغى أن تعرف باسم القباب السبع أو السبع

أقدم أمثلة هذا النوع فى مصر(٧٩) .

والواقع أنه إذا كان هذان المثلان هما أقدم ما بقى من المدافن ذى القباب حتى اليوم إلا أنه يستدل من اشارات المؤرخين أنه كانت توجد مدافن كثيرة فى القرافة تعلوها قباب ومن أمثلتها مدفن الليث ابن سعد (ت : ١٧٥ هـ / ٧٩١ م) الذى دفن فى مقابر الصدفيين وكان عددها أربعمائة قبة والليث أوسطها(٨٠) . وتدل هذه الرواية

قبب كما ذكر ابن الناسخ .

ابن الناسخ : مصباح الدياجى (مخطوط) – ورقة : ٩٣ .

(٧٩) **سعاد ماهر** : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ٢ – ص : ١١ .

عبد الرحمن فهمى : روائع فنية من عمائر القاهرة الدينية (منبر الإسلام – العدد ٤ السنة ٢٩ – ١٩٧١ م) . ص : ١٥٨ .

بين قباب الخوندات المملوكية (منبر الإسلام – العدد ٧ – السنة ٣١ – ١٩٧٣) . ص : ٢٤٤ .

Kessler (C): the carved Masonay Domes of Mediaevol Cairo. (Cairo, 1976). p. 3.

هذا ولم يتبق من هذه القباب سوى أربعة فقط فضلا عن وجود قاعدتين مربعتين لقبتين آخريتين اكتشفتهما لجنة حفظ الآثار العربية ١٩٤٤ م . ولم يظهر أى أثر للقبة السابقة .

Creswell: Op.Cit. P. 110.

وتقع هذه القباب فى المنطقة المعروفة بعزبة خير الله الجديدة على مقربة من مبنى خيالة الشرطة بعين الصيرة .

(٨٠) **المقريزى** : الخطط – جـ ٢ – ص ٤٦٣ .

السخاوى : تحفة الأحباب – ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

ونضيف فنقول : إن قبر الليث بن سعد كان كالمصطبة مكتوب عليها ؟ « الإمام الفقيه الزاهر العالم الليث بن سعد مفتى أهل مصر » ثم بنى عليه المسجد أو المشهد كبير التجار أبو زيد المصرى بعد ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م . ثم جدد القبة الحاج سيف الدين المقدم فى أيام الأشرف شعبان بن حسين قبيل ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م ثم حددت فى أيام الناصر فرج على يد الشيخ أبى الخير محمد بن الشيخ سليمان المادح فى المحرم ٨١٠١ هـ / ١٤٠٨ م . ثم حددت فى عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م . على يد امرأة قدمت من دمشق فى أيام المؤيد شيخ .

– إن صحت – على أن المدفن ذا القبة عرف فى القرافة منذ وقت مبكر أو بمعنى أدق منذ نهاية ق ٢ هـ / ٨م أى قبل كل من العصرين الأخشيدى والفاطمى بل وحتى قبل أقدم مدفن إسلامى باق وهو قبة الصليبية ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواية تتفق مع الروايات الأخرى التى سبق ذكرها والتى تبين وجود المدفن ذى القبة فى عصر كل من الرشيد والمأمون(٨١) .

ومما يذكر أيضاً فى هذا الصدد ما روى من أنه عندما توفيت السيدة نفيسة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣م بنى لها السرى بن الحكم ثم جدد البناء والقبة بعد ذلك فى العصر الفاطمى(٨٢) .

وتحتوى أيضاً قرافة أسوان(٨٣) على عدد من المدافن ذى القباب ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى(٨٤) .

ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٠١ .

المقريزى : المصدر السابق – ص ٤٦٣ . السخاوى – المصدر السابق ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – ج ٢ – ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

(٨١) انظر ص ٣٤ ـ ٣٥ من هذا الكتاب .

(٨٢) **ابن الناسخ** : مصباح الدياجى (مخطوط) – ورقة ١٦ .

السخاوى : المصدر السابق – ص ١٣٦ .

(٨٣) عن أسوان وأهميتها فى العصر الإسلامى انظر :

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية لعربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى ص ١٨ – ٢٤ . مدينة أسوان (القاهرة ١٩٧٧م) ص ٩ – ٣١ .

محمود الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى (الطبعة الأولى ١٩٨٠) .

(٨٤) قام (د. فريد شافعى) بدراسة مقابر أسوان دراسة أثرية تحليلية انتهى منها إلى القول بأنه توجد مجموعة كبيرة من المقابر الباقية يقرب عددها من ثلاثين مقبرة على الأقل يمكن أن يقع تاريخها فى فترة عصر الولاة وتسبق ق ٥ هـ / ١١م . وهو القرن الذى كانت المقابر كلها تنسب إليه أو إلى ما بعده .

فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - ص ٥٦٧ .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فإنه مما لا شك فيه أن العصر الفاطمى شهد إقامة الكثير من المدافن ذى القباب لاسيما فوق قبور آل البيت وقد أطلق عليها اسم المشاهد ، وقد اختلف الآثاريون بشأن تسمية هذه المدافن بالمشاهد فمنهم من ذكر أن إطلاق لفظة المشهد على تلك المدافن ترجع لنظرة الفاطميين لائمتهم وعظمائهم ، فقد كانوا يرون أنهم استشهدوا فى سبيل نصرة مبادئهم ومن ثم استحقوا درجة الشهادة ومن هنا جاء إطلاق لفظة المشهد على تلك المدافن فالمشهد فى نظرهم هو مكان الشهيد(٨٥) . ومنهم من ذكر أن المشهد هو مقبرة القديس(٨٦) .

ومنهم من ذكر أن المشاهد الفاطمية تعتبر شكلاً جديداً(٨٧) للمسجد بمثابة تحية وتذكار فوق القبور الحقيقية أو المزعومة لكبار

---

(٨٥) **عبد العزيز مرزوق** : الحياة الفنية فى مصر الإسلامية (تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثانى – ص ٥٧٥) .

كمال سامح : العمارة الإسلامية فى مصر (مطبعة جامعة القاهرة – ١٩٧٠م) ص ٩ .

عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة – ص ٣٤١ .

ويذكر الأستاذ محمد دهمان أن المشهد « اسم مكان من الشهادة والشهيد هو من قتل فى سبيل الله . فكأن دمه المطلول يشهد له بجهاده ، ويرى أن هذا اللفظ أطلق أولاً للبنايات التى شيدت على قبور أهل البيت وأن أول ما أطلق منها على مشهد الحسين حيث دفن فى المكان الذى استشهد فيه ثم على قبر أبيه ثم على بقية قبور الأئمة حيث مات أكثرهم قتلاً أو سماً ثم اتصل ذلك إلى أهل السنة فبنوا على قبور أئمتهم ومشاهيرهم مصانع دعيت بالمشاهد أيضاً كمشهد أبى حنيفة النعمان فى بغداد ومشهد الرفاعى فى أم عبيدة » .

محمد دهمان : فى رحاب دمشق – ص ٢٧٥ ، حاشية ٢ .

(٨٦) **Dozy:** Supplement. Vol. I. p. 794.
Margoliouth: Cairo, p. 47.

(٨٧) يكاد يتفق هذا القول مع ما ذكره (د. أحمد فكرى) من أنه ظهرت فى

العلويين الذين يستحقون تكريماً خاصاً وقد آثروا إظهار إجلالهم للعقيدة التى ضحى لها شهداء العلويين ولذلك يبدو أنهم حاولوا أن يكسبوا درجة من الشعبية مع المصريين الذين لم يكونوا أبداً شيعة حقيقيين(٨٨) .

ومنهم من ذكر أن المشهد هو المكان الذى يشاهد فيه شخص معين سواء كان بالحقيقة أو بالحلم كأن كان يصلى فيه أو توضع به جنازته أو حتى محل إقامته وحضور الناس إليه(٨٩) .

وقد يتفق هذا القول مع ما جاء فى المصادر التاريخية من أن « بالقرافة ومصر والقاهرة مشاهد كثيرة تعد من مشاهد الرؤيا(٩٠) ومن بين مشاهد الرؤيا هذه مشهد السيدة رقية(٩١) ومشهد السيدة الشريفة مريم ابنة عبد الله بن محمد بن أحمد بن إسماعيل الذى كان

العصر الفاطمى أنظمة جديدة للمساجد لم تصل إلينا نظائر لها فى العصر الفاطمى وهى نظام المسجد ذى الضريح أو نظام المشهد ويعتبر مسجدا الحيوشى والسيدة رقية مثلين فريدين لذلك .

أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها - جـ ١ - (العصر الفاطمى) ص ١٤٤ .

(٨٨) **Wiet:** The Mosques of Cairo, pp. 26 – 27.

فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة - ترجمة العبادى - ص ٥٤ .

(٨٩) **شاكر هادى** : الفن المعمارى والهندسة التشكيلية العامة فى المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة (بغداد ١٩٧٧م) - ص ٦١ - حاشية ٤ .

(٩٠) **السخاوى** : تحفة الأحباب - ص ٢٩٨ .

(٩١) **ابن الناسخ** : مصباح الدياجى - (مخطوط) - ورقة : ١٢ .

ابن الزيات : الكواكب السيارة - ص ١٨٤ .

حسن عبد الوهاب : أثر المرأة فى العمارة الإسلامية (مجلة الهندسة - السنة ١٦ - العدد ١١ ١٩٣٦م) ص ٤١٢ .

Rágib: Les Mausolées Fatimides. p. 30.

يعرف بمشهد النور[٩٢] .

والواقع أن كلمة المشهد تعنى فى قواميس اللغة مجمع الناس ومحضرهم[٩٣] ومحفلهم وكل مكان يشهده الخلق ويحتشدون به فهو مشهد ولو ربطنا بين هذا المدلول اللغوى وبين ما يفعله أتباع المذهب الشيعى عندما يأتون من أقصى البلاد وأدناها ويحتشدون لزيارة مرقدى الإمام على بالنجف والإمام الحسين بكربلاء من أجل التبرك بهما ومن هنا شاع استعمال كلمة المشهد قديماً وحديثاً لمرقد الائمة من آل البيت[٩٤] .

مما سبق يمكن القول بأنه أطلق على مراقد الائمة بالعراق لفظ المشهد ليس بسبب أنهم قتلوا واستشهدوا وإنما بسبب حضور الناس وترددهم على هذه المراقد المقدسة من أجل الزيارة والتبرك ، ولما كان أهل مصر يأتون لرؤية مدافن آل البيت للزيارة والتبرك وقضاء حوائجهم بل كانوا يستسقون عنها عندما يتوقف جريان النيل[٩٥] فمن ثم عرفت هى الأخرى بالمشاهد أسوة بمشاهد الائمة فى العراق ، ونضيف على ذلك فنقول أن هذه التسمية لم تقتصر فقط على آل البيت سواء فى العراق أو فى مصر وإنما أطلقت أيضاً على مدافن العلماء والشيوخ والصالحين التى يؤمها الناس ويترددون عليها من أجل الزيارة والتبرك[٩٦] .

---

(٩٢) **ابن الزيات** : المصدر السابق ص ١٨٤ .
السخاوى : المصدر السابق ص ٢٩٨ .

(٩٣) **ابن منظور** : لسان العرب - جـ ٤ - ص ٢٣٠ .

(٩٤) **سعاد ماهر** : مشهد الإمام على فى النجف - (القاهرة ١٩٦٨م) ص ١١٧ . مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - جـ ٢ - ص ١٠ .

(٩٥) **محمد حمزة** : قرافة القاهرة - ص ٢٣٦ - حاشية ٣ .

(٩٦) ومن أمثلة هذه المشاهد مشهد عقبة بن عامر ومشهد الليث بن سعد ومشهد

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن لفظ المشهد يطلق على المدفن الذى يؤمه الناس ويحضرون إليه من أجل الزيارة والتبرك سواء كان هذا المدفن خاص بآل البيت أو بأحد العلماء والشيوخ والصالحين .

وينبغى أن نشير هنا إلى ما ردده بعض علماء الآثار من أن هذه المشاهد قد أقيمت فى الفترة التى أعقبت الشدة العظمى المستنصرية على يد الوزراء وكبار الموظفين وكان غرضهم أن يستعيدوا من جديد الاحترام والرهبة التى كانت للخلفاء الفاطميين قبل حدوث الشدة ومن ثم استخدمها الوزراء كواجهات لحكمهم ليستطيعوا إحكام قبضتهم على البلد ، وقد أيد وجهة نظره هذه بقوله بأنه لا يوجد دليل واحد على أن هذه المشاهد بنيت أثناء العصر الذهبى للفاطميين حيث كان الخلفاء وقتئذ فى أوج قوتهم ومجدهم وليسوا فى حاجة إلى أن يذكروا الشعب بعلاقتهم الوطيدة بآل البيت(٩٧) .

والواقع أنه يمكن الرد على هذا القول من عدة وجوه :

الوجه الأول :

أن هذه المشاهد كانت معروفة فى بداية العصر الفاطمى وربما قبل

الإمام الشافعى ومشهد ذى النون المصرى وغيرها من المشاهد المنتشرة بشتى أنحاء مصر .

(٩٧) **Shafei (F) :** Egypt en Islamic Heritäge, pp. 55 - 83.

فريد شافعى : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها . الرياض ١٩٨٢م ص ٧٤ .

وقد يتفق هذا القول مع ما ذكره (د. عبد الرحمن فهمى) من أن هذه المشاهد أقيمت فى أواخر عهد الفاطميين أى فى وقت كانت قد ضاعت فيه هيبة الخلفاء واشتدت فيه سلطة الوزراء ومن ثم أقبل الفاطميون على عمارة هذه المشاهد استرداداً لهيبتهم الروحية فى نفوس الشعب وتحديدا لانتسابهم لآل بيت الرسول ﷺ .

عبد الرحمن فهمى : مشهد سيدى معاد (مجلة الإسلام العدد ٥ السنة ٣١ ١٩٧٣م) ص ١٩٦ ، ١٩٨

ذلك فالخليفة المعز كان يزور المشاهد فى ركوب أول العام وحدث فى يوم عاشوراء ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م أن أنصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين قبر أم كلثوم وقبر نفيسة ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالاتهم بالنياحة والبكاء على الحسين وكانت مصر لا تخلو منهم فى الأيام الأخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء(٩٨) .

ويذكر ابن دقماق أن الخليفة الحاكم بنى مشاهد وهى مدافن الأشراف بين مصر والقاهرة(٩٩) .

الوجه الثانى :

كان القضاة فى العصر الفاطمى يزورون المشاهد وصار قاضى القضاة « يتولى أمر الأحباس من الرباع واليه أمر الجوامع والمشاهد وصار للأحباس ديوان مفرد » كما أنه كان « يطلق لكل مشهد خمسون درهماً فى الشهر برسم الماء لزوارها ويجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة والنفقة عليها من ارتفاعه فلا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبداً ولا يعترض أحد من الانتفاع به »(١٠٠) .

الوجه الثالث :

أن كل ما حدث فى العصر الفاطمى الثانى ليس إلا تجديد أو إعادة

---

(٩٨) **المقريزى** : الخطط - جـ ١ - ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - جـ ٤ - ص ٩١ ٩٢ .

(٩٩) **ابن دقماق** : الانتصار - جـ ٤ - ص ١٢١ .
ويذكر البكرى أن هذه المشاهد ثلاثة وأن لها السدنة والخدمة ويوقد فيها السرج الكثيرة الليل كله .
عبد الله الغنيم : جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك للبكرى (الكويت ١٩٨٠م) - ص ٥٧ .

(١٠٠) **المقريزى** : الخطط - جـ ٢ ص ٢٩٥ .

ترميم لهذه المشاهد ففى ربيع الأول ٥١٦ هـ / ١١٢٢م أمر المأمون ابن البطائحى وزير الخليفة الآمر وكيله الشيخ أبا البركات محمد ابن عثمان بأن يتوجه إلى المشاهد السبعة وقيل التسعة بين الجبل والقرافة وأولها مشهدا السيدة زينب وآخرها مشهد السيدة أم كلثوم وأن « يجدد عمارتها ويصلح ما تهدم منها ويجعل على كل مشهد لوحاً من رخام عليه اسمه وتاريخ تجديده فمدحه الشعراء بعدة قصائد عند فراغ العمارة[١٠١] . وقام الخليفة الحافظ لدين الله بتجديد قبة مشهد السيدة نفيسة وببناء بعض مشاهد الرؤيا ومنها مشهد السيدة رقية ومشهد النور وغيرهما »[١٠٢] .

وقام الخليفة الظاهر ببناء مشهد على بن عبد الله بن القاسم الطيب[١٠٣] .

مما سبق يمكن القول بأن المشاهد كانت معروفة منذ بداية العصر الفاطمى وقد تولاها الخلفاء والوزراء بعنايتهم واهتمامهم سواء بالبناء أو التجديد أو الحضور إليها والتصدق عندها « بالأموال الجزيلة » كما كانوا « يجعلون عليها الستور »[١٠٤] .

ويبدو أن اهتمام الفاطميين بهذه المشاهد ربما يرجع إلى أنهم أرادوا أن يجعلوا من مصر مشهداً ومزاراً يفد إليه الشيعة من كل صوب مثلما

---

(١٠١) ابن ميسر : أخبار مصر - جـ ٢ - ص ٦٢ .
المنتقى من أخبار مصر تحقيق أيمن فؤاد سيد ص ٩١ .
ابن دقماق : المصدر السابق - جـ ٤ - ص ١٢١ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٨١ .
(١٠٢) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٣٦ ، ٢٩٨ .
(١٠٣) السخاوى المصدر السابق - ص ٢١٨ .
(١٠٤) نفس المصدر والصفحة .

يحدث فى بلاد العراق فكأنهم أرادوا أن تكون مصر مركزاً شيعياً عظيماً ينافس المراكز الشيعية فى بلاد العراق وإيران لاسيما وأن مصر أصبحت مقراً لخلافتهم ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المشاهد أصبحت بمرور الزمان مزارات يقصدها الناس ليتبركوا بها مثلما يفعل الشيعة عندما يحضرون إلى مشهدى الإمام على والإمام الحسين – على الرغم من أنه لا يوجد فى مصر من يعتنق المذهب الشيعى ولكنه حب أهل مصر لآل بيت رسول الله ﷺ وتعاطفهم معهم بعد أن حلت بهم المصائب ونزلت بهم النكبات وأصبحت مصر هى الملاذ الأخير للكثير منهم فهرعوا إليها واستقروا بها ودفن الكثير منهم فى ترابها ولاسيما فى القرون الأولى من الهجرة فلا عجب إذن من أن يتعلق أهل مصر بحب آل البيت ولايزال هذا الحب فى نفوس المصريين عامتهم وخاصتهم حتى يومنا هذا .

وشهدت العصور التالية للعصر الفاطمى إقامة الكثير من المدافن ذى القباب التى تحوى رفات الكثير من الصالحين والزهاد وسلاطين وأمراء الأيوبيين والمماليك فى مصر بل حوت بعض المدافن رفات النساء اللائى كان لهن شأن كبير فى العصرين سالفى الذكر مثل شجر الدر وفاطمة خاتون وخوند طغاى وخوند طولبية وغيرهن .

وينبغى أن نشير هنا قبل الخوض فى تتبع مكونات المدفن ذى القبة وتطورها إلى ظاهرة إلحاق المدفن ذو القبة بالمنشأة الدينية ، تلك الظاهرة التى شغلت اهتمام علماء الآثار فمنهم من ذكر أنها بدأت فى العصر الأيوبى وأن أول أمثلتها المدفن ذى القبة الملحق بمدرسة الصالح نجم الدين أيوب،(١٠٥) .

(١٠٥) صالح لمعى : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ص ٣١ .

ومنهم من ذكر أن هذه الظاهرة بدأت أولاً فى سوريا عندما أسس نور الدين محمود فى دمشق مدرسته ٥٦٧ هـ / ١١٧٢م وألحق بها مدفناً لنفسه ، ومنذ ذلك الوقت سن فى سوريا فكرة الجمع بين المدفن والمدرسة واستقر هذا النظام هناك(١٠٦) .

وتضيف (كسلر) فتذكر أنه لايزال يوجد ١٧ مدفناً ملحقاً بمدارس فى دمشق وحلب قبل عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م وهو العام الذى أدخلت فيه شجرة الدر هذا الطراز إلى القاهرة بأن ألحقت مدفن زوجها بمدرسته(١٠٧) .

والواقع أن عهد إلحاق المدافن بالمنشآت الدينية يسبق عهد نور الدين محمود بوقت كبير ويدل على ذلك ما يلى :

١ – إلحاق قبر الرسول ﷺ بمسجده فى خلافة الوليد بن عبد الملك كما سبق القول(١٠٨) .

٢ – ما قام به شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمى فى عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦م من بناء قبة على قبر الإمام أبى حنيفة وإلى جانبها مدرسة كبيرة للحنفية ولما تم بناؤها دعا إليها الفقهاء والعلماء والأعيان(١٠٩) . ويوجد لدينا فى مصر مثل يقارب

حسنى نويصر : منشآت السلطان قايتباى – ص ٦٨ .

مصطفى نجيب : مدرسة خايربك (بحث فى كتاب القاهرة) – ص ٥٠١ .

Margoliouth: Cairo, p. 62.

Mostafa (S): Kloster und Mausoleum des Farag ibn Barqúq. pp. 114.

(١٠٦) **حسن الباشا** : الفنون الإسلامية والوظائف - جـ ٣ – ص ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٦٨ . دراسات فى الحضارة الإسلامية (القاهرة ١٩٧٥) – ص ١٠٦ .

(١٠٧) **Kessler:** Funerary Architecture within the city. p. 259.

(١٠٨) انظر ص ٢٧ - ٢٩ من هذا الفصل .

(١٠٩) **محمد دهمان** : فى رحاب دمشق ص ٢٧٤ ٢٧٥ .

المثل السابق وهو المدفن ذو القبة الملحق بالجهة الشمالية الشرقية من مشهد الجيوشى ويرجع هذا المدفن إلى نفس العام الذى بنى فيه المشهد وهو ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م كما أثبت ذلك (د. فريد شافعى) بأدلة معمارية قاطعة(١١٠)

٣ - يستشف مما جاء فى المصادر التاريخية أن جواسق القرافة كان ملحقاً بها مدافن لأصحابها وكذلك الحق ببعض مساجد القرافة مدافن لأصحابها ومنها مسجد ومدفن الصالح طلائع بن رزيك ومسجد ومدفن تاج الملوك أبو الهيجاء ومسجد ومدفن الأمير لؤلؤ الحاجب بالقرافة الصغرى(١١١) .

مما سبق يمكن أن المدافن الملحقة بالمنشآت الدينية قد عرفت منذ أواخر القرن الأول الهجرى وزاد الاهتمام بها فى النصف الثانى من ق ٥ هـ / ١١ م وانتشرت خلال ق ٦ هـ / ١٢ م فى مصر والشام وأصبحت فى القرون التالية سنة واجبة الاتباع بحيث لا تخلو أى منشأة من وجود مدفن ذى قبة ملحق بها إلا فيما ندر .

وبطبيعة الحال كان لإلحاق المدافن بالمنشآت الدينية أثره الكبير فى

---

(١١٠) — **Shafei (F):** The Mashhad al Juyushi. (Cairo, 1965). p. 237.

(١١١) **محمد حمزة إسماعيل الحداد** : قرافة القاهرة - ماجستير - ص ٣٤ - ٣٥ ، ٤٤ ، ٦٢ .

ولعل ما ذكرناه فى النقطة الثانية والثالثة فى هذه الصفحة ( ) ينفى ما رددّه الزميل (مختار الكسبانى) من أنه « لم يصل إلينا فى مصر سواء فى الآثار الباقية أو كتب التاريخ ما يفيد إلحاق مدافن بالمساجد فى العصور السابقة بإستثناء ما أورده المؤرخون بشأن إنشاء الصالح طلائع تربة ملحقة بجامعه خارج باب زويلة لدفن رأس الإمام الحسين رضى الله عنه » .

مختار الكسبانى : جامع الأمير تمراز الأحمدى - رسالة ماجستير - غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٨٦ م - ص ١٤٤ .

زيادة الاهتمام بها وبمكوناتها لأنها أصبحت تشكل وحدة معمارية وزخرفية مع باقى المنشأة ولاسيما الواجهات المطلة على الشارع فقد حرص المعمار على أن يناسب بين ارتفاع الواجهتين – أى واجهة المنشأة وواجهة مربع القبة الملحقة بها – ومن ثم نجد أن مربع بعض القباب مرتفع جداً ليتناسب مع ارتفاع واجهة المنشأة نفسها حتى لا يبدو منظر الواجهة شاذاً وغير متناسق ومن أمثلة ذلك مربع قبة كل من محمود الكردى وجانى بك بالخيامية والمغربلين وأولجاى اليوسفى بسوق السلاح وايتمش البجاسى بباب الوزير .

هذا ويلاحظ أن المعمار لم يقم أحياناً بعملية التناسب هذه مما كان له أثره على ظهور الواجهة بمظهر شاذ غير متناسق لأن واجهة المنشأة أكثر ارتفاعاً من واجهة مربع القبة ومن أمثلة ذلك مربع قبة كل من السلطان اينال[١١٢] بالصحراء ومربع قبة تمراز الأحمدى بالسيدة زينب وزاد الاهتمام أيضاً بزخرفة واجهة مربع القبة لتتناسب مع واجهة المنشأة نفسها و، سح ذلك فى وجود دخلات عميقة إلى حد ما يتوجها إما عقود مدببة أو منكسرة تتوسطها زخارف بارزة وإما صدور مقرنصة وإما تنتهى بهيئة مسطحة أو مشطوفة ، وتحتوى هذه الدخلات من أسفل على شبابيك تعلوها قمريات هذا وتنتهى هذه الدخلات بنهاية الواجهة العمومية للمنشأة كلها أسفل صف

(١١٢) ربما يرجع ذلك إلى بناء المدفن أولاً وإلحاق بقية المنشأة به بعد ذلك إلا أنه يؤخذ على المعمار أنه لم يقم بعملية تناسب بين واجهة مربع القبة وواجهة المنشأة نفسها كما حدث فى أمثلة كثيرة منها منشأة قرقماس المحاورة لمنشأة اينال فعلى الرغم من أن القبة بنيت أولا ، إلا أن المعمار ناسب بين ارتفاع واجهتها وبين واجهة المنشأة التى ألحقت بها فيما بعد .

الشرافات[١١٣] المتوجه لها .

(١١٣) الشرافات ومفردها شرفة وقد وردت فى بعض وثائق العصر المملوكى شراريف وهى نهاية الشيء وحافته وتكون من الحجر أو المعدن أو الخشب .

عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار - ص ٤٦٢ - حاشية ١ .

أما الشرافات التى تتوج واجهات المنشآت المملوكية فهى من الحجر وتكون إما عبارة عن شرافات مسننة أو على هيئة الورقة النباتية الثلاثية أو الخماسية .

obeikandl.com